حديثٌ مع طفلة

حلمي صابر . شعبان 1444هـ

- ------- -- -- - - - - - - - -- - - - ------------



عيناكِ ما عيناكِ !

أعيونُ مسلمةٍ عربية

عينان خضراء كزيتونة فلسطينية ، صامدة أبيَّة

أم عينانٍ من عينِ بَرَدَى الدمشقية التي بكت على عيني أختها الحلبية

أم أنك زيتونتان من أغادير المغربية

تتقدُ على عينين جزائرية !

نظرتُ في عينيها

سألتها من أنتِ ؟ من أين جئتِ ؟

قولي لي بربكِ من أنتِ ؟

هل أنت حوريةٌ من السماء نزلتي ؟

أم طائرٌ من البحر خرجتي ؟

أم وردة عند الباب نبتي ؟

اللهم باركْ ما حولكِ ولكِ وعليكِ وبكِ

من أين جئتي ؟ من أنتِ ؟

قالت : أنا دانه ، مسلمة عربية

قلت في نفسي هذا الذي حيرني !

أهذا اسمكُ أم وصْفِكِ !

طَرِبَ الحسنُ من حسنكِ

شعركِ - أسودٌ طويلٌ - شعرُ عربيةٍ

وعيناكِ خضراء زيتية

وفستانكِ الطويل فستقي ممزوج ببنفسجي

زادكِ حسناً على حسنٍ

يا صغيرتي :

هل عيناك عينا فلاحة مصرية ؟

عيناكِ واسعةٌ ، رموشها ظلٌ ! أعيناكِ عينا سودانية ؟

أم عينان ممدودتان كما تنطق الليبية ؟

أم عيناك ممتلئة بالكحل العربي كعيني العُمانية ؟

أم أنك أردنية ، عيناك كعيني فتاة نابلسية ؟

عيناك ما عيناكِ !

عينا لبنانية ممزقة بأحزابٍ زعموا بأنها أحزابا وطنية !

عجائب من الألوان تحت ضوء الشمس

عينان ذهبية كعيني فتاة من إبّ، لون قهوة عربية ممزوجة بالزعفران كعيني اليمنية

أم تُراكِ من تونس الخضراء !

يا زيتونة تونس أين الجامعة القيروانية ؟!

لماذا وضعتِ على عينيك الخضراءَ الزيتية ، عدساتٍ صناعية ؟

كما فعلتْ الخليجية وفتاة الجزيرة العربية !

لا أظن عينيك رقيقةَ الجفن ، وخفيفة الرمش كعيني موريتانية وجيبوتية وصومالية

أم عيناكِ عينا أفغانية ، فيهما كل ألوان العيون البشرية

تخبزُ الخبز في بيتها ، وتدقُ الدقيق في مطحنها

عيناها شِعاعٌ مُشّعٌ ، حرقت الاعتداءات الإنجليزية والروسية والأمريكية

لم تجبني الطفلة الصغيرة ، لكنني ما يئستُ من جوابِها ،

سألتها مرةً أخرى :

ما بكِ ؟ لَمَ تبكينَ يا صغيرتي ؟

لماذا في عينيك دمعٌ يجري ؟ كأنه يجري فيَّ

أتأذنينَ أن أمسح دمعكِ ؟

مسحتهما

وكان دمعهما زيتًا لزجًا مضيئا في يديَّ

كررتُ سؤالي :

ما بكَ يا صغيرتي ؟

أرجوكِ ، لا يتحملُ قلبي بكاءَ طفلٍ

دموعكِ زيتٌ ! أشعلتني دموعكِ الزيتية

أرجوكِ ، أنا محروقٌ لا ترمِ مزيدَ حَطَبٍ عليَّ

قالت: أخذوا أبي وأخيَّ

سألتها : من أخذهما ؟ أهما في السجون الصهيونية ؟

صمتتْ وأشاحتْ بوجهها ومسحتْ دمْعَها بكفِيها

بكيتُ معها ، ودمعتْ عينايَ على خديَّ ،

فمسحتْ بكفِها الصغيرةِ الناعمةِ عينيَّ

عرفتُ الجوابَ ،

إنَّ أخاها وأباها في سجون عربية !.

لم أخبرها بقصتي

لم أزدْ بها ما عليها

ولن أزيد

سأتوقفُ هنا

غطيتُ وجهي بيديَّ

نشيج أنينٍ في صدري ،

سمعتهُ بعينيها الزيتونية

كلانا طفلٌ ؛

فضمتني الصغيرة بيديها

قلت لها بصوتٍ أشجٍ : يا زيتونةَ العينينِ متى يخرجُ أصحابي من الحبسِ الذين كعينيَ

سادَ الصمتُ بيننا ، ثم افترقنا ،

سلمتُ عليها وردتِ السلامَ عليَّ

انتهى